

# العالم الإسلامي بين الوحدة والتنوع

د. منير رويس

المعهد الأعلى لأصول الدين  
بجامعة الزيتونة بتونس

## المقدمة :

اخترت في نطاق هذه الندوة «حضارة أم حضارات» أن أتناول موضوعا تاريخيا يتعلق بنظرة المسلمين لأنفسهم ونظرتهم لغيرهم من الحضارات ولا سيما منها الحضارة المسيحية. ويتحدد البحث بزمان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية أي أثناء القرن الرابع للهجرة /10م مقابل ضعف وانقسام المسيحيين الأوروبيين مما جعل المسلمين يشعرون أنهم المركز وحضارتهم هي الأقوى ومن حولهم يعيش الأطراف أي الحضارات التي كانت تُعتَبَر دونية لديهم. ونظرة المسلمين لأنفسهم وللعالم لا تعني أنهم يمثلون وحدة بقدر ما يشملهم التنوع والاختلاف الذي لم يحل دون تفوقهم الحضاري آنذاك.

والملفت للانتباه هو أن ألفاظا يقع تداولها للإشارة للمسلمين وما يقابلهم من المسيحيين، وهي ألفاظ يطلقها المسلمون أو يطلقها غيرهم وتطوّرت مدلولاتها عبر الزمن.

فما هي مفاهيم المصطلحات الدالة على المسلمين ؟

وما هي مظاهر التنوّع والتوحد لدى المسلمين في تلك المرحلة من الزمن ؟

وما هي مكانة الحضارة العربية الإسلامية من بين الأمم ونظرتها للآخرين ؟

## أولاً : المفاهيم :

لماذا وقع الاختيار على كلمة «العالم الإسلامي» والحال أن لنا كلمات أخرى مستعملة ككلمة «الأمة» و«الملّة» و«دار الإسلام» أو «دار الإيمان» التي يقابلها «دار الحرب» و«دار الكفر».

### ـ الأمة :

وردت كلمة «الأمة» في القرآن الكريم مرّات عديدة وأنت بمعاني مختلفة منها الطريقة الصحيحة والجماعة ومنها الاشتراك في عبادة الله مثلما جاء في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْعُرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾<sup>(1)</sup>. وقد استعملها المفكّرون المسلمون بطرق متعدّدة وبصيغ متعدّدة واعتبروها أنها تجمع كافة المسلمين دون استثناء. فهذه الكلمة لا تعترف بحدود سياسية أو حدود جغرافية معيّنة وإنما تعترف بوحدة العقيدة الإسلامية الموجودة مشرقاً ومغرباً. والتي تجمع بين مجموعة من الناس يتّخذون الإسلام ديناً لهم ويشعرون برابطة واحدة تجمعهم. وسنذكر لاحقاً في هذه المداخلة مظاهر توحيد الأمة عقائدياً.

### ـ «العالم الإسلامي» :

«العالم الإسلامي» مصطلح أطلقه الأوروبيون على الدّول الإسلاميّة التي هيمنوا عليها واستعمروها وشعروا تبعاً لذلك بثقل الدّين الإسلامي فيها من حيث تنفّذه في حياة السّكان رغم وجود اختلافات بين المسلمين

(1) سورة آل عمران رقم 3، الآية 110.

تبعاً لتفرّقهم بين المشرق والمغرب وبين القارّات وبين الأعراق والجنسيات، ودأب المفكّرون الأوروبيون والغربيّون عامّة على استعمال كلمة «العالم الإسلامي» بدل كلمة «الأمة الإسلاميّة»، وحذا حذوهم معظم المفكرين المسلمين. والأسّاذ هشام جعيط يعتقد «أنّ الدين الإسلامي كان يرنّ في المجتمعات فيمثّل هويّتها العميقة والثابتة»<sup>(2)</sup>.

وبالرغم من أنّ المفكرين الغربيين يستعملون كلمة «العالم الإسلامي» فإنّهم واعوان بالفروق الموجودة داخل هذا العالم ويقومون بتفصيله إلى مناطق. وردّد هؤلاء نفس التّقسيم الموجود عند المسلمين أنفسهم منذ وقت بعيد الذي يميّز «المشرق» و«المغرب» الإسلاميّين.

- العالم العربي الإسلامي، هو مصطلح أدق من مصطلح العالم الإسلامي، وقد استخدمه المفكرون الغربيون كما استخدمه العرب المسلمون أنفسهم. وتعود هذه التسمية إلى ارتباط المسلمين بالعرب ارتباطاً وثيقاً. ففي المنطقة العربية ظهر الإسلام والعربيّة هي لغة القرآن والعرب هم الذين قادوا الفتوحات الإسلاميّة مشرقاً ومغرباً. بل إنّ الفقهاء كانوا يحرضون على تعلّم اللّغة العربيّة ومن ذلك إجباريّة إلقاء خطبة الجمعة باللّغة العربيّة وفق المذهب المالكي<sup>(3)</sup> بما يمثّل دعوة إلى التمسك باللّغة العربيّة وحفظها.

وأدّى تقدّم العرب إلى نشر اللغة العربيّة في بعض المناطق المفتوحة كمصر وبلاد المغرب، مع أنّ بعض البلدان المفتوحة حافظت على لغتها كبلاد فارس ومناطق تواجد الأتراك.

وكان استعمال العربيّة أمراً عادياً ويكاد يكون أمراً حتميًّا لدى المبدعين المسلمين من عرب أو غير عرب. ويزخر التاريخ العربي

(2) جعيط (هشام)، أوروبا والإسلام، بيروت 1980، ص 82.

(3) رويس، محمد الطاهر، الفقه الواضح، تونس 1990، ص 167 - 168. لكن فقهاء المذهب الحنفي لا يلزمون الإمام بإلقاء الخطبة بالعربيّة وخالفوا بذلك فقهاء المذهب المالكي في هذه المسألة.

الإسلامي بوجود عدد من العلماء المسلمين من غير العرب الذين ألفوا بالعربية وأجادوا ونذكر على سبيل الذكر أصحاب كتب الصحاح الستة والطبيب ابن سينا وكلهم من أصل غير عربي.

واليوم عندما ننظر إلى الثقافة الإسلامية في عصور تطورها لا نفصل بين مناطق العرب وغير العرب وإنما نتحدث عن المناطق الإسلامية ككل التي تعبّر عن ثققتها باللغة العربية أساسا. والمفكر الفرنسي رولان بريتون<sup>(4)</sup> عند تحديده للمجالات الجغرافية العالمية يحدّد مجال الحضارة الإسلامية بالمجال العربي الإسلامي ويُرجع ذلك إلى الهيمنة التاريخية الثقافية بالأمس للعروبة.

ولنا أن نتساءل هنا، لماذا أطلق الأوروبيون على المناطق الإسلامية كلمة العالم الإسلامي في حين احتفظوا لأنفسهم بكلمة الغرب ولم يستعملوا كلمة العالم المسيحي كمقابل لكلمة العالم الإسلامي؟ فكلمة الغرب لها مدلول جغرافي كان المفروض أن يقابلها كلمة الشرق التي كانت مستعملة ولكن الأوروبيين يصرون على كلمة دينية مقابل كلمة جغرافية ويتأكد هذا لدى رجال من الفكر والسياسة لديهم. فهل أن ذلك لرفض ربط مصالحهم بالدين وتأكيد فصل الكنيسة عن حياتهم؟ أو لاعتنائهم بأن الدين الإسلامي هو عامل توحيد لهذا العالم عكس العالم الغربي الذي لا يهيمن فيه الدين المسيحي على كل المجتمعات، من ذلك المجتمع الياباني الذي يمثل جزءا من العالم الغربي وهو يحتوي على عدد من السكان غير المسيحيين؟ أم أن الغاية تدلّ أن العالم الإسلامي هو شيء مختلف عنهم حضاريا اختلافا تاما ولا بدّ من تمييزه عنهم مثلما ميّزوا شبه الجزيرة الهندية فقالوا العالم الهندي رغم أن هذا العالم شديد التنوع والاختلاف.

ويبدو أن كلّ هذه العوامل مفسّرة لإطلاق الغرب كلمة العالم الإسلامي على عالمنا.

---

(4) بريتون (رولان)، جغرافيا الحضارات، ص 98.

## ـ تقسيمات أخرى في نطاق العالم الإسلامي :

إنّ الميز بين مختلف مناطق «العالم الإسلامي» الممتدّ مشرقا ومغربا أمر متأكد. فلا يمكننا أن نفهم مجريات الأحداث الحاصلة في المناطق الإسلاميّة دون أن نعرف تفصيلات هذا العالم الإسلامي. وكان المفكّرون الغربيّون - مرّة أخرى - هم الذين أوجدوا هذه التقسيمات واقتفى أثرهم المفكّرون المسلمون في تبنيّ التسميات التي استعملوها.

فالشرق L'Orient الذي يقابله حتما الغرب L'Occident هو مصطلح أوروبي أطلق في العصر الحديث على المناطق التي كانت تحت نفوذ الإمبراطوريّة العثمانيّة. ولما توغل الأوروبيون في الصّين في نهاية القرن 19م استعملوا مصطلحا جديدا هو «الشرق الأقصى» وأدّى ذلك إلى استعمال مصطلح جديد هو «الشرق الأدنى». وبين كلّ من الشرق الأقصى والأدنى لابدّ من وجود منطقة وسطى اصطلاح الأنكلوسكسونيّون على تسميتها بـ «الشرق الأوسط» وحددوها بالمناطق الممتدّة بين البحر الأحمر والإمبراطوريّة البريطانيّة في الهند.

وبعد سقوط الدّولة العثمانيّة توسّع مفهوم الشرق الأوسط ليشمل جملة الدّول العربيّة وتركوا لفظ الشرق الأدنى. لذا نجد عددا من المفكرين الأمريكيين يستعملون كلمة الشرق الأوسط للتعبير عن مجال فسيح ممتدّ من المغرب الأقصى إلى الباكستان. أمّا المصطلح الفرنسي فهو يستعمل في نفس الوقت كلمتي الشرق الأوسط والشرق الأدنى دون ميز بينهما وأحيانا معا. وهو ما يشمل المجال الجغرافي الممتدّ من وادي النيل إلى وادي الهندوس. ومعنى ذلك أنّ الفرنسيين «يعتبرون بلاد المغرب Maghreb جزءا من هذا المجال وحسب هذا التحديد الفرنسي لكلمة الشرق الأوسط والأدنى فإنّه يشمل ما يلي :

المشرق العربي : L'Orient Arabe ويضمّ الجزيرة العربيّة (لبنان وسوريا والأردن والعراق وفلسطين) ويضمّ كذلك دولتين بوادي النيل هما

(مصر والسودان). والملاحظ هو أن البعض يصنّف مصر والسودان من جملة دول إفريقيا.

العالم التركي الإيراني : Le monde Turco-Iranien ويشكل تركيا وإيران وأفغانستان. والملاحظ هو أن البعض يصنّف تركيا في دول أوروبا المتوسطة، أمّا باكستان فهناك من يعدّها من بلدان الشرق الأوسط وهناك من يعدّها من جملة بلدان العالم الهندي.

ومنطقة الشرق الأوسط والأردن (بالمفهوم الفرنسي) هامة استراتيجيًا حيث تقع بين قارّات ثلاث هي إفريقيا وآسيا وأوروبا، وهي هامة اقتصاديًا بثرواتها الطبيعية ولا سيما منها المحروقات.

وبعد النظر في مختلف تقسيمات العالم الإسلامي وتسمياتها ماضيا وحاضرا نعود إلى دراسة التنوّع والتوحّد في العالم الإسلامي في العهد الوسيط.

## ثانيا : مظاهر التنوّع والتوحّد في العالم الإسلامي :

### 1 - مظاهر التنوّع :

### - التجزئة السياسيّة :

عرف العالم الإسلامي تجزئة سياسيّة منذ القرن الثاني للهجرة/ 8م وتختلف هذه التجزئة تبعا لتاريخ انفصال المناطق الإسلاميّة عن مركز الخلافة بغداد انفصالا سياسيًا. فقد انفصلت أقطار المغرب في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ 8م، تبعها آسيا الوسطى في منتصف القرن الثالث للهجرة / 9م وعدّة مناطق أخرى انفصلت أيضا في تواريخ مختلفة من القرنين الثالث والرابع للهجرة / 9 - 10م. يقول المؤرّخ كلود كاهن : «والقرن العاشر (أي الرابع للهجرة) هو ذروة تلك الفترة التي كانت على جانب من الأصالة والغنى بحيث لا يتيسّر بحثها إلا بعد الجهد والعناء»<sup>(5)</sup>.

(5) كاهن (كلود)، تاريخ العرب، ص 186.

وإذا تحدّدها زمنياً بالقرن الرابع للهجرة/ 10م فإننا نضع العالم الإسلامي سياسياً بالتقسيمات التالية :

كانت بلاد المغرب بيد الفاطميين والأندلس بيد الأمويين. أمّا فارس والرّي وأصبهان والجلّ فكانت تحت نفوذ بني بويه. وآلت مصر والشّام إلى الإخشيديين. وخراسان كانت تحت نفوذ السّامانيين. ولم يبق في يد الخليفة العبّاسي سوى بغداد وأعمالها. وتحدّث المسعودي عن تفكّك المسلمين وتجربتهم سياسياً وتحولّ الحكم الإسلامي من حكم مركزي واحد إلى حكم مركزي ومعه حكّام أطراف أي أماكن جغرافية مستقلة سياسياً عن المركز الذي كان يحكمها وهو بغداد. وما ذكره المسعودي يخصّ الثّلاث الأوّل من القرن الرابع للهجرة وبالتحديد سنة 332هـ أي في عهد الخليفة العبّاسي المتقي بالله (329-333هـ/ 940-944م). فقد شبّه فعل أصحاب الأطراف وتغلّب كلّ واحد منهم على الصّقع الذي هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر<sup>(6)</sup>.

فإننا نلاحظ أنّ العالم الإسلامي تفكّك سياسياً إلى درجة وجود ثلاثة مراكز خلافة متنافسة فيما بينها تقول كلّ واحدة إنّها الأحق بالخلافة الإسلاميّة. وهي الخلافة العبّاسيّة وقاعدتها بغداد، والخلافة الفاطميّة التي أعلنت بإفريقية قبل أن ينقلها الفاطميّون إلى مصر ويجعلوها من القاهرة قاعدة لخلافتهم، وأخيراً الخلافة الأمويّة بالأندلس التي أعلنها الحاكم عبد الرّحمان الأموي بقرطبة وحمل لقب أمير المؤمنين منذ سنة 300هـ 912/ م.

لكن لم يكن من شأن هذا الانقسام وتعدّد أمراء المؤمنين أنّ يؤدي إلى ضيق في معنى العالم الإسلامي. بل صارت كلّ هذه الأقاليم تؤلّف مملكة واحدة سمّيت «دار الإسلام» وتقابل «دار الكفر»، وهو الذي كان مستعملاً لدى المفكرين المسلمين من فقهاء ومؤرخين وغيرهم. وكلمة دار الإسلام لا تتقيّد بحدود سياسيّة وإنّما يدل معناها على الأمّة الإسلاميّة

---

(6) المسعودي، مروج الذهب، طبعة دار المعارف، بيروت، ج 603/1، ج 73/2 وما بعدها.

التي ذكرناها في البداية. وقد حدّد المسعودي أفق هذا العالم الإسلامي الممتدّ بين الشّرق والغرب وأعطى أبعاده الجغرافيّة بكلّ دقّة وذلك نقلا عن الفزاري الذي قال إنّهُ يمتدّ «من فرغانة و أقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ، ومن باب الأبواب إلى جدّة ستّمائة فرسخ. ومن الباب إلى بغداد ثلاثمائة فرسخ، ومن مكّة إلى جدّة اثنان وثلاثون ميلا»<sup>(7)</sup>.

والجغرافي المقدسي (ت395هـ/900م) تحدّث عن مملكة الإسلام في القرن الرّابع للهجرة 10م أي في الزمن الذي عاشه وقال إنّها تمتدّ من كاشغر في أقصى المشرق إلى السّوس الأقصى، في المغرب الأقصى وإنّها تقطع في نحو عشرة أشهر<sup>(8)</sup>.

أمّا ابن حوقل (ت371هـ/981م) الذي عاش في نفس الفترة فإنّه حدّد مملكة الإسلام كما يلي : «شرقيّها أرض الهند وبحر فارس، وغربيّها مملكة السّودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي، وشماليتها بلاد الرّوم وما يتصل بها من الأرمن والآن والرّان والخرز والبلغار والصّقالبة والترك والصّين، وجنوبيّها بحر فارس»<sup>(9)</sup>.

وزيادة على الشّعور بالانتماء إلى مجال واحد هو العالم الإسلامي كان كلّ فرد مسلم يشعر رغم علمه بالانقسام السّياسي أنّه يستطيع أن يرتحل في كلّ منطقة من هذا العالم حيث توجد العقيدة الإسلاميّة وتطّبق الشّريعة الإسلاميّة في ظلّ الاختلاف بين الفرق والمذاهب.

### ـ التّنوع بين الفرق والمذاهب ـ

تعدّدت الفرق والمذاهب في الفترة التي ندرسها. قال المقدسي : «اعلم أنّ المذاهب المستعملة اليوم (أواخر القرن الرّابع للهجرة/10م) في

(7) المسعودي، ن.م، ج 37/4-38.

(8) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص.

(9) ابن حوقل، المسالك والممالك.



الإسلام التي لها خاص وعام ودعاة وجمع ثمانية وعشرون مذهباً،<sup>(10)</sup> وجعل المقدسي المذاهب الإسلامية متشعبة من أربعة : الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة. ولم يجعل بالتالي السنة من جملة هذه المذاهب. فالواضح أنّ المذاهب السنية لم تنتشر إلا بصفة متأخرة. ويعتقد الباحث محمد أركون أنّ الإسلام السني فرض نفسه بصفة متأخرة، وبالأخص منذ القرن الرابع للهجرة / 10م<sup>(11)</sup>. وقد أكد المؤرخ دومينيك سورديل انتشار المذاهب السنية الأربعة في هذه الفترة<sup>(12)</sup>. والمذاهب المنتشرة إلى وقتنا هذا هي مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل. والخلاف بين الفرق موجودة في عدة مسائل نذكر منها مسألة الخلافة والإمامة ومسألة الجبر والاختيار ومصير صاحب الكبار.

وبالتسبة إلى انتشار المذاهب السنية الكبرى في العالم الإسلامي آنذاك فهو يبين التّنوّع بين مختلف المناطق فقد ساد المذهب الحنبلي في بغداد ولم ينتشر خارج العراق إلا في القرن الرابع للهجرة / 10م، وانتشر المذهب الشافعي بالأساس في مكة والمدينة، وكانت المالكية في مصر والأندلس والمغرب الذي قاسمتها إياه الحنفية<sup>(13)</sup>.

إنّ وجود هذا التهديد في الفرق والمذاهب لا ينفي توحّد كلّ المسلمين واشتراكهم في عقيدة التوحيد الإسلامية.

### ـ التّنوّع البشري : التّنوّع الجنسي والعرقى ـ

ضمّ المجتمع العربي الإسلامي خليطاً من العناصر والأجناس، فبالإضافة إلى العرب هناك الترك والفرس والبربر وغيرهم. وقد وصف أحد الشعراء الخليط الموجود بين مختلف العناصر داخل مدينة بغداد

(10) المقدسي، ن.م، ص 37.

(11) محمد أركون حول ابن مسكوية، باريس، فران 1970، ص 161.

(12) Sourdel (D). L'Islam médiéval, p. 81.

(13) آدام متز، الحضارة الإسلامية، طبعة تونس والجزائر، ج 391/1-394.

عاصمة العباسيين، والشاعر هو أبو يعقوب الخريمي (ت. حوالي 206 هـ / 821 م) أي في فترة الفتنة بين الأخوين الأمين والمأمون، وقال ذاكراً بعض الشعوب القائمة في بغداد من صقالبة وأحباش وهنود وبربر وغيرهم :

أين الجرادية الصقالب وال    أحبش تعدو هُدلاً مشافرها  
ينصدع الجندُ عن مواكبها    تعدو بها سُرْباً ضوامرها  
بالسند والهند والصقالب وال    نوبة شيبَت بها برابرها  
طيرا أبابيل أرسلت عبثا    يقدم سودانها أحامرها (14)

وكان المجتمع الإسلامي يشعر بهذا التنوع ويفتخر كل قسم منه بنفسه ويتحدث عن أبرز خصاله التي تميّزه عن باقي المجموعات البشرية المتعايشة. فقد أورد الطبري قول رجل أجاب به الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي تساءل عن أنواع الناس ؟ «أهل الحجاز مبدأ الإسلام وبقية العرب، وأهل العراق ركن الإسلام ومقاتلة عن الدين، وأهل الشام حصن الأمة وأسنة الأئمة، وأهل خراسان فرسان الهيجاء وأعنة الرجال، والترك منابت الصخور وأبناء المغازي...» (15).

وعاشت هذه المجموعات البشرية المتنوعة في المدن العربية الإسلامية وانصهرت فيما بينها بما تمارسه من أعمال مشتركة حيث تكثر فرص التلاقي بينهم في الأسواق والمساجد، كما أنّ المصاهرات ساهمت في دمج مختلف العناصر مع بعضها البعض وسار المجتمع تدريجياً نحو الانصهار في ظلّ مجتمع عربي إسلامي متنوع لكنّه شاعر بالوحدة الإسلامية.

(14) الطبري، تاريخ الرّسل، والملوك، ج 449/8-450.

(15) الطبري، ن.م، ج 71-70/8.

## 2 - مظاهر التّوحد :

. الاشتراك في عقيدة التّوحيد :

تعتبر عقيدة التّوحيد هي التي تجمع بين مختلف المسلمين وتقضي بممارسة العبادات بشكل متماثل مع التحلي بقيم متشابهة أتى بها الدين الإسلامي لتنظيم المجتمع. وجاء في دائرة المعارف العالميّة ما يلي : إنّه مهما كان الاختلاف الجغرافي واختلاف العادات والتقاليد المحليّة فالمسلمون موحدون بعقيدتهم ووعيهم الديني الموحد<sup>(16)</sup>.

ويمكن اختزال النقاط التي يشترك فيها كلّ المسلمين بما يلي :

في الأركان الإيمانيّة : وهي الشهادتان والحج وصوم رمضان والصّلاة وإيتاء الزّكاة. فالمسلمون يشتركون في اتّباع هذه الأركان والحرص على تطبيقها.

وحدة القيم بين المسلمين : فأنتى توجّهت في أرجاء العالم الإسلامي تجد بين المسلمين قيما مشتركة مثل صلة الرّحم ومراعاة أعراف الأسرة المترابطة ونشر الأخلاق الفاضلة والتآزر بين الفقراء والأغنياء...

وهذه النقاط الموحّدة للمسلمين تجعلنا نتحدّث عن «الأمة الإسلاميّة» أكثر من حديثنا عن «العالم الإسلامي» لأنّ مفهوم «الأمة» أوسع كما بيّنا في البداية.

## . شبكة مدن كثيفة :

التحضّر ميزة من ميزات العالم الإسلامي وقت ازدهاره، وهو أمر مشترك بين المسلمين مشرقا ومغربا. يقول الأستاذ هشام جعيط «إنّ المدينة هي إطار حياة المسلمين، ومكان لوجودهم الحضاري، ومركز حياة اجتماعيّة مكثّفة بالدين والثّقافة»<sup>(17)</sup>.

Encyclopédia Universalis (1985), T. 10, p. 195. (16)

(17) هشام جعيط، ن.م، ص 83.

لقد توزّعت في العالم الإسلامي شبكة من المدن تشابهت فيما تقوم به من أدوار حضارية وخاصة منها نشر الثقافة والإبداع. وقد تميّزت عدّة مدن في العصر الذي ندرسه بقوة الحركات العلمية والأدبية مثل البصرة والكوفة وبغداد في العراق وأصبهان والرّي في فارس وبخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر».

كما ازدهرت الثقافة الإسلامية في كلّ من حلب والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة وغيرها. وتحدّث الأستاذ موريس لومبار عن «ازدهار مديني» في العالم الإسلامي تواصل من القرن الثامن حتّى القرن الحادي عشر للميلاد (2-5هـ)، وقال : «كان العالم الإسلامي مسرحا لازدهار مديني هائل، هذا الازدهار اتسم قبل كلّ شيء بإقامة مدن صار بعضها سريعا أكبر مدن العالم» (18).

وكان العالم الإسلامي رغم تجزئته السياسية مترابطا بشبكة مدينيّة واسعة «شكّلت بالرّابطة التي قامت بين مدينة وأخرى هيكلا مادّيّا للعالم الإسلامي وفي نفس الوقت دورة للتّيارات الحضاريّة الكبيرة» (19).

وقد ارتبطت المدن الإسلاميّة بشبكة من الطرق التجاريّة الكبيرة ممتدة من الصّين إلى الأندلس ومن بلاد السّودان إلى آسيا الوسطى ممّا يسرّ ازدهارا مدينيّا هائلا، وهذا النشاط التجاري هو من مظاهر التّوحد في العالم الإسلامي.

### - شبكة تجاريّة كثيفة -

تتخلّل العالم الإسلامي مجموعة من الطّرق والمسالك مكّنت من تحقيق التّرابط بين العالم الإسلامي اعتمادا على شبكة مدينيّة كما قلنا. وحدّد موريس لومبار هذه الطّرق التجاريّة القوافليّة الكبيرة وهي التّالية :

---

(18) موريس لومبار، الإسلام في عظمته الاولى، ص 109.

(19) موريس لومبار، ن.م، ص. 110.

- الجذع الكبير الذي يربط آسيا الوسطى من سمرقند، بخاري ونيسابور إلى الريّ ثمّ بواسطة نهر عيسى والفرات إلى حلب إلى أنطاكية وإلى أساكلس سوريا.

وباتجاه الجنوب الغربي ثمة طريق فرعيّ يقود إلى دمشق عسقلان وإلى دلتا النيل : الإسكندرية، القسطنطينية، القاهرة، ثمّ عبر برقة إلى القيروان. إلى هضاب المغرب العليا وإلى فاس، إلى «مرافئ العبور» على مضيق جبل طارق وإلى مدن الأندلس : إشبيلية وقرطبة.

- في هذا الجذع الكبير تصبّ شبكات أخرى هامة من الطرقات البرية والبحرية وهي طريق الأنهار الروسية - قزوين - الري، طريق المحيط الهندي، (الخليج العربي)، البصرة، بغداد، طريق البحر الأحمر، الأدبية - وادي النيل - القاهرة، طرق الصحراء الكبرى نحو المغرب، طرق الغرب المسيحي نحو الأندلس ومرافئ البحر المتوسط الحالي<sup>(20)</sup>.

فقد تمكّن المسلمون بفضل هذه الشبكة من نشر نمط حضاري واحد تمازجت معه المناطق التي تمرّ منها القوافل التجارية. والملاحظ هو أنّ العلاقات التجارية لم تشمل المناطق الإسلامية وحدها بل تعدّت ذلك إلى المناطق المجاورة والخارجية عن نفوذ المسلمين مثل البلدان الإسكندرية أو أقصى المناطق الصينية والهندية وغيرها.

### - الوحدة الثقافية الإسلامية :

شعر المسلمون - ولا زالوا - أنّ ثقافتهم واحدة تجتاز الحدود السياسية والجغرافية. وقد استفادوا من ثقافات الآخرين، ففي المرحلة الأولى قام المفكّرون بترجمة كتب اليونانيين والبيزنطيين والهنود منذ القرن الثاني للهجرة/ 8م فاستفادوا منها واطّلعوا على علوم أخرى لم تكن معروفة لديهم. وفي مرحلة ثانية توصل العلماء المسلمون إلى تحقيق الإضافة والإبداع الحضاري في شتى العلوم ولم يكتفوا تبعاً لذلك بترديد ما

(20) موريس لومبار، ن.م، ص 201.

وجدوه في الحضارات الأخرى. ويقول الأستاذ عبد الله العروي ملخصاً تطوّرهم الثقافي الكبير : «إنّ أوج التاريخ العربي. والحضارة العربيّة هو القرن الرابع الهجري / العاشر بعد الميلاد حيث شاركت كلّ الأجناس وكلّ العواصم في ازدهار ثقافة غزيرة متنوّعة أدبيّة علميّة فلسفيّة كلّها مكتوبة بالّلغة العربيّة. بعد تلك الحقبة لم تشهد أيّ عاصمة من عواصم الوطن العربي نشاطاً فكريّاً مماثلاً ولم يستعد العرب نفوذهم وتأثيرهم ومركزهم القيادي»<sup>(21)</sup>. وهذه المرحلة من تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة شهدت بروز عدد من العلماء في اختصاصات متنوّعة وهي العلوم الدّينيّة والعقليّة. لكن هذه الوضعيّة تغيّرت بعد القرن الخامس للهجرة / 11م حيث تراجع الإبداع لدى العلماء المسلمين دون أن يقضي على علماء أفذاذ ظهوروا فيما بعد نذكر منهم على سبيل الذكر المؤرّخ عبد الرّحمان ابن خلدون الذّائع الصّيّة.

### ثالثاً : الصورة الحضاريّة للعالم الإسلامي :

بالرجوع إلى تاريخ الحضارات المقارن نجد أنّ مختلف حضارات الإنسانيّة ادّعت أنها مركز العالم لانشغالها بعظمتها وتفوّقها دون أن يمنع ذلك من أن تأخذ الحضارة من الحضارات التي سبقتها أو التي تجاورها بصفة إراديّة أو عفويّة ودون عقد في الحالتين. فالمفكرون المسلمون كانوا يعتقدون أنّهم الأقوى ولا توجد قوّة فكريّة تهدّد وجودهم. وقد صوّر المفكّرون المسلمون شعورهم بمركزيّة العالم الإسلامي وتفوّقه على باقي الحضارات التي كان البعض منها مجهولاً لديهم مثلما صوّرته المعارف الجغرافيّة التي كانوا يكسبونّها. ومن خلال المعلومات التي قدّمها عدد من المفكرين المسلمين يمكننا فهم فكرة مركزيّة العالم الإسلامي.

نبدأ أولاً بتقسيم المؤرّخ والجغرافي السعودي (ت 346هـ/957م) للأرض من خلال كتابيه «التنبيه والإشراف» و«مروج الذهب». قسم

---

(21) انظر عبد الله العروي، قضية التراث والانبعث الحضاري في الوطن العربي.

المسعودي الأرض إلى سبعة أقسام. وقسم المعمورة إلى أربع حسب جهاتها شرق وغرب وشمال وجنوب. وهو يعتبر الإقليم الأوسط (الرابع) الذي تقع عليه الديار العربية الإسلامية خير الأقاليم وأكثرها اعتدالا ومدنية. فهو يتوسط العالم وتتوزع حوله جنوبا المناطق الحارة ثم الأكثر حرارة، وحوله شمالا تتوزع الأقاليم الباردة ثم الأكثر برودة وعليها تعيش شعوب الفرنجة. وهؤلاء الفرنجة حسب المسعودي : «ومن جاورهم من الأمم قد ضعف سلطان الشمس عندهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد، وتبدلت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابتضت ألوانهم. ومن كان أوغل في الشمال فالغالب عليهم الغباوة والجفاوة والبهائية. وتزايد ذلك في الأبعد والأبعد إلى الشمال» (22).

والقاضي الأندلسي صاعد بن أحمد الأندلسي شعر بتفوق المسلمين على غيرهم من الناس وذكر دونية الشعوب الأخرى ومنها الفرنجة الذين اعتبرهم أشبه «بالبهائم منهم بالناس... فشا فيهم العمى والغباوة، كالصقالبة والبلغر، ومن اتصل بهم» (23).

والمؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) (24) عبّر عن نفس نظرة المسعودي للأرض ولموقع المسلمين منها، وذلك بتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم.

وضع ابن خلدون العالم العربي الإسلامي في الإقليم الرابع وهو موقع القلب من المعمورة، وهو إقليم الحضارة الذي كلما ابتعدنا عنه ابتعدنا عن الحضارة سواء أكان ابتعدنا نحو الشمال أو نحو الجنوب.

ويتلخص تقسيم ابن خلدون لأقاليم المعمورة كما يلي :

---

(22) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 38-39.

(23) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، التجف 1967، ص 86.

(24) ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الفكر 1988، ص 63 وما بعدها.

الإقليم السابع : الشمال وهو إقليم بارد، أبعد بكثير عن الاعتدال.

الإقليم السادس : بعيد عن الاعتدال.

الإقليم الخامس : أقرب إلى الاعتدال.

الإقليم الرابع : أعدل العمران، هو موقع القلب : هو العالم العربي الإسلامي.

الإقليم الثالث : أقرب إلى الاعتدال.

الإقليم الثاني : بعيد عن الاعتدال.

الإقليم الأول : الجنوب، وهو إقليم حار، أبعد بكثير عن الاعتدال.

يؤكد ابن خلدون على أهمية الإقليم الرابع الذي هو مركز الحضارة إلا أنه يقول إننا نجد بعض ملامح الحضارة في الإقليم الثالث جنوبا والإقليم الخامس شمالا أي الإقليم الذي تقع فيه اليونان وروما وبلاد الأندلس وصقلية. واعتبر أن محاذة هؤلاء للإقليم الرابع وراء تحضرهم، كما أن اتباعهم الديانة المسيحية قد ساهم أيضا في نمو حضارتهم وثقافتهم.

فالأقاليم الثلاثة عنده مخصصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. وجاء في قوله ما يلي : ولم نقف على خير بعثة (نبوية) في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم. قال تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، وذلك ليتم القبول بما يأتيهم الأنبياء من عند الله.

وحدّد ابن خلدون المتعاشين بهذه المناطق المعتدلة وقال : وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين. ومن



كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من كل الجهات.

وبالإضافة إلى الأحكام العامة التي صاغها ابن خلدون عن الأقاليم الشمالية فإنه نبّه إلى التطور الثقافي الحاصل ببلاد الفرنجة عكس ما كان يعانيه عند العرب المسلمين. وقال : وبلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الأفرنج من أرض رومة، وما إليها من العدو الشمالية، نافقة الأسواق وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متهددة ودواوينها جامعة ومتوفرة وطلبتها متكثرة، واللّه أعلم بما هنالك، وهو يخلق ما يشاء ويختار.

وواصل المسلمون شعورهم بالتفوّق على غيرهم ولا سيما منهم تفوّقهم على الأوروبيين وتأكّد ذلك عقب الحروب الصليبية التي حقّق فيها المسلمون نصرا ساحقا على الصّليبيين الذين أطرّدوا من كل المناطق التي دخلوها بقدرة إسلاميّة فائقة في الانتصار عليهم. وصوّر أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار هذه الحقيقة، فلنن اعترف للفرنجة بالشجاعة فقد أشار إلى تخلف سلوكهم المدني لا سيما الذين لم يتأثروا بمعاشرتهم المسلمين فيقول : «من الإفرنج قوم تبدّلوا (تكيّفوا) وعاشروا المسلمين، فهم أصلح من القربي العهد ببلادهم، ولكنهم شاذّ لا يقاس عليه.. ويحدثنا عن الطابع البدائي لحاكماتهم وبؤس طرائقهم الطبية المتخلّفة (25)».

وواصل المسلمون نظرتهم الدينيّة لأوروبا المسيحية في العصر الحديث، وبالتحديد في عهد الدولة العثمانيّة التي غدت أكبر قوة عالمية في القرن العاشر للهجرة / 16م بفضل قوّتها العسكريّة التي مكّنتها من التقدم على جزء من الأراضي الأوروبيّة زيادة على قوتها الاقتصادية المرموقة.

لكنّ فكرة «مركزيّة العالم الإسلامي» أصيبت بصدمات أشعرت المسلمين أنّهم في تراجع وضعف كبيرين. وكانت أوّل صدمة أشعرت

---

(25) ابن المنقذ، كتاب الاعتبار، ص 132-140.

المسلمين بالضعف كانت في نهاية القرن السابع عشر للميلاد إثر هزيمة الدولة العثمانية أمام القوى الأوروبية وإبرامها معاهدة صلح سنة 1699م جمعت بينها وبين النمسا وروسيا والبندقية وبولونيا. وفقدت الدولة العثمانية بمقتضى هذه المعاهدة بلاد المجر وعدة مناطق أخرى لفائدة النمسا وروسيا وانفتح الباب أمام الأطماع الأوروبية في الممتلكات العثمانية بأجمعها. وتأكد ضعف العرب والمسلمين في نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد لما دخلت القوات الفرنسية مصر بقيادة نابليون. ومنذ ذلك التاريخ تحولت نظرة العرب المسلمين من نظرة شعور بالقوة وامتلاك المركزية العالمية إلى نظرة الضعف والشعور بالانتماء إلى الأطراف بعد ما تحولت المركزية العالمية إلى الغرب.

وشعر العرب المسلمون بضرورة تغيير أوضاعهم المتردية فكانت مرحلة «النهضة» العربية الإسلامية التي بقيت رؤيتها للغرب متأرجحة بين جماعة من المصلحين يقولون بالاقتراب من الغرب وجماعة أخرى تقول بالقطيعة معه وبينهما جماعة إصلاحية ثالثة تدعو إلى التوفيق بين النظرتين.

**الخاتمة :** مثل العالم الإسلامي في القرن الرابع للهجرة /10م مركز العالم وذلك بهيمته على المنطقتين البحريتين الكبيرتين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، وبامتلاكه الطريق القاري الكبير، طريق السهوب والصحاري والواحات الذي من آسيا الوسطى يقود إلى إفريقيا الغربية، وكانت له علاقات مباشرة مع المراكز الأخرى المدنية في الهند والصين وبيزنطة، كما كانت له علاقات بالغرب المسيحي، فهو كما قال موريس لومبار يمثل جسرا بين العوالم الطرفية <sup>(26)</sup>.

لكن تصدّعت هذه الوحدة منذ القرن الخامس للهجرة /11م بعد تقدّم البداوة وتكاثر الغزوات ونتج عن ذلك الانحطاط المدني وانقطاع

---

(26) موريس لومبار، ن.م ص 203.

التّيارات الاقتصادية. وتحوّل مركز ثقل العالم القديم من مناطق الشرق وبالتّحديد من المدن الكبيرة في العالم الإسلامي إلى مدن الغرب انطلاقاً من المدن التجاريّة الإيطاليّة ثمّ إلى باقي المدن الأوروبيّة وبعد ذلك إلى العالم الجديد وخاصّة بأمريكا واليابان.

ودخل العالم الإسلامي في مؤثرات جديدة جعلته يتحرّك بطريقة مخالفة لما كان عليه فبعدما كان مركز العالم يشعر بذلك أصبح طرفاً في هذا العالم الذي تحوّل المركز فيه إلى واجهة المحيط الأطلسي أولاً ثم إلى واجهة المحيط الهادي في المدّة الأخيرة. وأصبح للتطوّر الثقافي والحضاري الذي يستفيد من كلّ الحضارات لا يتمّ بصفة إراديّة وعفويّة مثل من كان في البداية بل أصبح مفروضاً بأشكال مختلفة. فإلى أيّ حدّ يمكن قبول ما يقوم به الغرب من فرض أفكاره على العرب والمسلمين ؟ وإلى أيّ حدّ يمكن الحفاظ على الهوية العربيّة الإسلاميّة عند قبول أفكار الآخرين ؟ وكيف يعتبر الحوار بين الحضارات المتوازن حلاً لتجاوز عقد التّعامل مع الآخر وبالتالي خلق أرضيّة مشتركة للتعايش الحرّ والعادل بين مختلف الشعوب والحضارات ؟